الاكتساب اللّغويّ بين النّظريّتين العقليّة الفطريّة والمعرفيّة البنائيّة

Language Acquisition Between Rational Innatism and Constructivism Cognitive Theories

L'acquisition du langage entre les théories : l'innéisme rationnelle et la constructivisme cognitive

حفصة فقاص
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد اللّه

الإرسال : 10-05-2024 القبول : 21-06-2024 تاريخ النشر : 24-06-2024

الملخّص

تعدّ مسألة الاكتساب اللغوي من أعقد المسائل التي شغلت المختصين في مجال الدرس اللغوي، لما يلفّها من غموض راجع لطبيعة الظاهرة نفسها؛ فقد تعددت النظريات واختلفت الآراء في هذا الشأن، ولم يحسم الأمر كليّاً لحدّ الساعة فيما يتعلق بالآليات المعرفية واللغوية والبيولوجية لكيفية حدوث الاكتساب اللغوي. فقد ذهب تشومسكي صاحب النظرية العقلية إلى القول بكونه مسألة فطرية، في حين عارضه بياجي رائد النظرية البنائية المعرفية الذي يرى أنه معرفة مكتسبة وفق مسارات معقدة تقوم على التفاعل والبناء. ويرمي مقالنا هذا إلى تسليط الضوء على هذا الجدل لمحاولة الخروج بما يوافق بين النظريتين.

كلمات مفتاحية : الاكتساب اللغوي، المعرفة، الفطرية، البناء، التفاعل.

Abstract

The issue of language acquisition is one of the most complex issues that has preoccupied specialists in linguistic studies, because of the ambiguity that surrounds it, due to the nature of the phenomenon it self. There have been many theories and different opinions in this regard, and the matter has not been completely resolved yet with regard to the cognitive, linguistic and biological mechanisms of how linguistic acquisition occurs. Chomsky, the author of the rational theory, argued that it is an innate issue, while Piaget, the pioneer of cognitive constructivism, opposed him, who sees it as knowledge acquired according to complex paths based on interaction and construction. Our article aims to shed light on this controversy in order to try to come up with a consensus between the two theories.

Keywords : language acquisition, knowledge, innate, construction, interaction.

Résumé

L' acquisition du langage est un des themes les plus complexes qui a préoccupé les linguistes; en raison de l'ambiguïté qui l'entoure, dû de la nature du phénomène même, engendrant de multiples théories, de différents points de vue à cet égard; et la problématique n'a pas été complètement résolue jusqu'à présent en ce qui concerne les mécanismes cognitifs, linguistiques et mécanismes biologiques qui porte sur comment l'acquisition linguistique se produit. Chomsky, l'auteur de la théorie rationnelle; qui a soutenu qu'il s'agit d'une question innée. tandis que Piaget, le pionnier de la théorie constructiviste cognitive, s'y opposé; en affirmant qu'il s'agit d'une connaissance préalablement acquise via des processus complexes basés sur l'interaction et la construction. Notre article a pour but de mettre en lumière cette controverse à fin de tenter de trouver accord entre les deux théories.

Mots-clés: acquisition du language, connaissance, innéisme, constructiviste.

1. الاكتساب اللغوي وفق النظرية العقلية الفطرية

1.1. مدخل

اعتمد تشومسكي في بناء نظريته على أفكار العالم الشهير "ديكارت"، وقد كانت انتقاداته للنظرية السلوكية مثارًا لهذا التيار الجديد الذي احتل مكانا بارزًا في خضم الدراسات اللسانية المعاصرة، فلقد رفض "تشومسكي" أفكار السلوكيين رفضًا قاطعًا لأنّه يرى أنّها قائمة على اعتقادات أولية. وقاصرة عن تفسير الكثير من المسائل اللغوية، كما أنّها غير قادرة على الخوض فيما وراء الملحوظ والوصول إلى البنى العميقة للغة، وتُقرُّ النظرية الفطرية العقلية بأنّ الطفل في عملية الاكتساب اللغوي لا يقوم بجهد معيّن، ذلك لأنه يملك قدرات فطرية تمكُنه من تقبل المعلومات اللغوية اللازمة ليبني لغته بنفسه وذلك بالتوافق مع استعداداته الفطرية، ونشير هنا إلى أن الطفل غير مهيأ لاكتساب لغة دون أخرى، بل يكتسب لغة البيئة التي يترعرع فيها أيّا كانت وتؤدي به هذه العملية إل تكوين ما يسمى بالملكة اللسانية أي أنه يمتلك وبصورة حتمية قواعد اللغة التي تمكنه من إنتاج عدد غير منتهٍ من الجمل وكذا فهمها وإنشائها أيضا.

قبل الشروع في الحديث عن المراحل التي يمر بها الطفل حتى يكتسب لغته نود التعرض لبعض النقاط المتفرقة اللازمة لفهم مسار الاكتساب اللغوي لدى تشومسكي :

- **أولاً** : يكتسب الطفل لغة البيئة التي يترعرع فيها، أي أنّه غير مهيأ لاكتساب لغة دون أخرى.
- **ثانيـا** : لا يكتسب الطفل اللغة فحسب، بل يمتلك كل ما تتيحه له بحيث يمتلك فنيات وتقنيات التواصل والتبليغ.
- **ثالثا** : يكتسب الطفل اللغة عبر سماع جملها ومحاولة النطق بها، فهو مستقل بذاته في مسار اكتسابه للغته، بحيث لا يحتاج لمن يلقنه إيّاها.

- **رابعًا** : يتم اكتساب بنى اللغة على نسق واحد بالنسبة لجميع الأطفال الأصحاء أي غير المصابين بعاهة ما تحول دون نموهم الطبيعي.
- **خامسًا** : ينطق الطفل السوي في حوالي السنة الأولى من عمره بكلمات منفردة غير منظمة في نسق تركيبي، وفي السنة والنصف إلى السنتين يعمل على تركيب هذه الكلمات في جمل مكوّنة من كلمتين أو ثلاث كلمات إلى أن يمتلك بنى لغته كاملة وفق منطق الإبداعية.

وبعد عرض هذه النقاط الموجزة يمكن أن نقول إنّ تشومسكي كغيره من المتأثرين بفلسفة "ديكارت" يرى أن الإنسان مزود بقدرات تميزه عن غيره من الكائنات وأن أعظم هذه القدرات قدرته على الكلام والتواصل عبر نظام معقد ومنظّم يدعى اللغة، والتي تعكس مدى تطور وتعقيد العقل من هنا بدأت فكرة "تشومسكي" القاضية بكون الجانب الإبداعي للعقل البشري والاستعدادات الفطرية ذات الطابع البيولوجي قادران على تفسير مسارات وآليات الاكتساب اللغوي، بحيث يرى أن الطفل يولد وهو مزود بما يمكنه من تقبل المعلومات اللغوية في قوالب موافقة لها تسمح له بتخزينها واستظهارها لاحقا عندما تكتمل.

2.1. مراحل الاكتساب اللغوي في النظرية الفطرية

يرى "تشومسكي" أن الطفل يملك فطريًا تنظيماً ثقافيًا يمكن أن ندعوه بالحالة الذهنية الأساسية، تتعرض هذه الأخيرة خلال مرحلة مبكرة من الطفولة لتغيرات سريعة تؤدي بها إلى الاكتمال لتصير حالة ذهنية صلبة، والتي لا تتغير إلاّ قليلاً. ويمكن أن نعتبر التغيرات التي تتعرض لها هذه الحالة الذهنية الصلبة طفيفة جدا، والحالة الصلبة حالة نهائية للذهن، يقول "تشومسكي" : «يمكن أن نفترض وجود ما نسميه بالحالة الذهنية الأساسية، والتي تعدُ محددة بالعوامل الوراثية، كما أنّها مشتركة بين أفرَاد الجنس البشري .. وعليه يمر الذهن بعدة مراحل حتى يصل إلى حالة ثابتة

وذلك عند بلوغ سن محدّدة، ولا يمكن أن نعتبر التغيرات الي قد يتعرض لها الذهن عند هذه المرحلة مهمّة، أو ذات دور ما بل لا تتعدى كونها هامشية»[1]، ونستنتج أن الطفل ومن خلال تفاعله مع محيطه بالإضافة إلى نموه الذاتي معرض للمرور بمراحل مختلفة ومتلاحقة تتشكل من خلالها البنى المعرفية، بحيث تتغير الحالة الذهنية الأساسية بسرعة وذلك في مرحلة مبكرة من الطفولة إلى أن يصل إلى حالة ثابتة، والتي تعد نهائية تأخذ فيها اللغة شكلاً مكتملاً إلى حد ما.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأطفال متساوون فيما يخص ما ذكر أعلاه، وذلك بغض النظر عن اللغة التي يكتسبونها، أو المجتمع الذي ينتمون إليه، ذلك لأنهم لا يتكلمون عن طريق اختزال جمل الكبار، بل يتكلمون لغة تتلاءم ومراحل نموهم. وقد توصل الباحثون إلى أن النتائج تكاد تكون واحدة رغم اختلاف اللّغات التي يدرسونها واختلاف المجتمعات التي تجري فيها هذه الدراسات.

وقد بينت هذه الدراسات أنّ انحراف كلام الطفل عن كلام الكبار يتم بصورة منتظمة، وهو ما يقودنا إلى التفكير في أنّه يعمل على بناء لغته بنفسه عبر تحليله لها وإسنادًا إلى قدراته الذهنية. فإذا أخذنا المجال الفونولوجي كمثال يمكن القول إن اكتساب الطفل يبدأ بالتمّيز بين الأصوات الصامتة، والأصوات المصوتة ثم يتعدى هذا إلى تقسيم كل بمجموعة إليى مجموعات فرعية دون التوصل إلى كل السمات الخاصة بفونيمات لغته إلى أن يكتسب التنظيم الفونولوجي للغته.[2]

1- Noam Chomsky, Règles et représentations, trad Alain Kihn, Flammarion, France, 1985, P 177.

2- انظر : ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط2، بيروت، لبنان، 1983، ص55.

أمَّا في المجال التركيبي فتبدأ عملية اكتساب الطفل باستعمال كلمة ثم كلمتين ليشكل عبارة إلى أن يصل إلى مستوى الجملة، ويتم ذلك باستعماله لفئتين من الكلمات الأولى تدعى الكلمات المحورية، أمّا الثانية فتدعى بالكلمات المفردة، وهو ما يعني أن الطفل في هذه المرحلة يمتلك تنظيمًا تركيبيًا خاصًا به بحيث يستعمل كلمتين ثم يزيدها كلمة أخرى إلى أن يتمكن من استخدام الأدوات، والروابط، وهكذا يقترب شيئًا فشيئا من الجمل التي ينتجها الكبار، ومن الملفت للانتباه أن ظهور مفهوم الجملة لدى الطفل يكون مبكرًا وهو ما يعكس الاستعدادات الفطرية الي يمتلكها الطفل.[1]

يقوم الطفل في إطار الاكتساب اللغوي بعمل ذهني معقّد، بحيث يسعى لا شعوريًا إلى اكتشاف النظام الذي يحكم لغته حتى يبني تنظيمه الخاص وذلك بالاستناد على عمليات ذهنية تتماشى ونموه الإدراكي بالإضافة إلى المادة اللغوية التي يستمدها من المحيط، وبهذا يشكّل قواعده الخاصة التي تتيح له التواصل مع أفراد مجتمعه، ويرى «تشومسكي» أن اكتساب الطفل للغة مرهون باكتشافه لما يشكل نظرية عميقة ومجرّدة تتمثل في النحو التوليدي.[2]

نستنتج ممّا سبق أنّ تشومسكي يرى أنّ الاكتساب اللغوي قائمٌ على توصل الطفل إلى اكتشاف الأدوات التي يبني من خلالها نظريته الخاصة حول لغته أو نحوه الخاص الذي يكون بطبيعة الحال غير مطابق للغة الكبار أو نحوهم بادئ الأمر، ويرى تشومسكي أن هذا الأمر، أي عدم تجانس نحوه الصغير وقلة معطياته وتدني نوعيته، دليل على أن الطفل غير مزود بأي معلومات مسبقة حول لغة بعينها، أي أنه قادر على اكتساب

1- Noam Chomsky, Théorie linguistique et apprentissage, La Recherche, N° : 331, mai 2000, France, p 27.

2- ibid. p 27.

غيرها عوضاً عنها، انطلاقا من المادة اللغوية المتوفرة في بيئته بكل ما قد يعتريها من نقص، ويفسر "تشومسكي" هذه الفكرة بكون الطفل مجهز بما سماه بالكليات وهي قواعد مشتركة بين اللغات الإنسانية، وهو ما يعني أنه إزاء عملية اكتشاف قواعد لغته أو نحوها التوليدي وذلك من بين القواعد الكلية التي تولد معه، ويفترض أن تتوفر لدى الطفل المعطيات الآتية حتى يتمكن من اكتساب النحو التوليدي للغته :

1- مجموعة ملاحظات وفرضيات.

2- مبادئ معيّنة يتعامل بهما لتنظيم الملاحظات والتحقق منها.

3- مجموعة المعلومات اللغوية التي تتوافر لديه بواسطة تطبيق الفرضيات على المعطيات اللغوية.

إنّ سماع الطفل لغة الجماعة اللسانية التي ينتمي إليها يجعله يكتشف تدريجيًا أنّ الفرضيات التي صاغها قد تتوافق مع معطيات هذه اللغة، وقد لا تتوافق وإيّاها، فيقبل وبصورة لا شعورية فقط تلك التي تتيح له اعتماد التفسيرات الصحيحة حول اللّغة الهدف، وفي هذه المرحلة يمكن القول إنّه قد امتلك قواعدها : «يسمع الطفل مقاطع اللغة التي سوف يكتسبها ويكتشف تدريجا أن بعض الفرضيات التي صاغها لا تتوافق ومعطيات اللغة، وبعضها الآخر يتوافق فمن المتوقع أنه سيتوصل إلى أن يقبل، وهنا بصورة لا شعورية فقط الفرضيات التي تتيح له اعتماد التفسيرات الصحيحة حول جمل لغته، وفي هذه المرحلة بالذات يكون قد امتلك قواعد لغته»[1]. وتتم عملية التحقق من صحة فرضياته عبر مقارنتها بالمادة اللغوية الي يستمدها من محيطه.

1- ibid. p 29.

3.1. خلاصة

يرى تشومسكي أنّ اكتساب اللغوي لدى الطفل يبنى على ما يسميه بالبنى العميقة التي لا تقابل أي قول تم إنتاجه فعليًا، أي أن الطفل لم يسمعه من قبل، هذه المعرفة الفطرية التي تشمل كل ما يمكن أن يكتسب مباشرة وهو ما يجسد الفكرة الفطرية لديه. وعليه فإن الطفل في منظور النظرية العقلية الفطرية يكتسب اللّغة عبر بناء نظريته الخاصة معتمدًا على مجموعة من الفرضيات التي يمتلكها فطريًا، بحيث يقوم بتطبيقها على المعطيات اللغوية التي يستمدها من محيطه، ويتلخص دور العائلة أو المحيط في كونه دورا توسيعيًا يوسع لغة الصغير ويشعّبها باتجاه الانخراط في لغة الكبار، ليكتشف الطفل تدريجيًا المظاهر الخاصّة بلغتهم، من خلال الأنماط الجاهزة التي تعرض عليه، والتي تساعده في عملية الاكتساب، وتقبّل المعلومات اللغوية وفهمها، ومن ثمة تطوير ملكته اللغوية وتنميتها.

نخلص مما تقدم إلى أن الاكتساب اللغوي -حسب تشومسكي- يقضي بأنّ الطفل يكتسب لغته انطلاقًا مما يسمع ويعي من معطيات التأدية التي يستمدها من محيطه، وذلك بالاستناد إلى ملكته الفطرية، التي تحوّل الخبرة اللغوية إلى قواعد كامنة في دماغه وتمرُّ هذه العملية بعدة مراحل تتناسب ونمو الدماغ، بحيث تنتهي بمرحلة أخيرة يسميها تشومسكي بـ"الحالة النهائية، أو الصلبة"[1]. ولا يتعدى دور العائلة كونه المورد الذي يمد الطفل بالمادة اللغوية والتي يقوم من خلالها باكتشاف قواعد "لغته الأم"، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المعطيات اللغوية المقدمة للطفل من قبل محيطه قد تكون غير صحيحة أو ربما غير نحوية في بعض الأحيان، ولكن هذا لا يمنع الطفل من اكتساب لغته مع تفادي هذه الأخطاء والتي قد يعمد إلى

1- Noam Chomsky, Règles et représentations, trad Alain Kihn, Flammarion, France, 1985. p 76.

تصحيحها بعد التفطن إليها .و تعد هذه النقطة بالذات إحدى الحجج التي اعتمد تشومسكي عليها لإثبات كون الطفل مجهز بقدرات إدراكية فطرية تمكُنه من تطوير وبناء نظامه النحوي بنفسه.

كما أننا لا نستطيع أن نحلل نحوَ الأطفال بتبسيط نحوِ الكبار، فهو ليس في أي حال من الأحوال صورة مصغرة له وهو ما يبدي لنا الجانب الإبداعي لدى الطفل، فعملية الاكتساب اللغوي لا تجعل منه مقلدًا لما يسمع من الأقوال ذلك لأنّ لغته كثيرًا ما تكون منحرفة عن كلام الكبار، فهو قادرٌ على إنشاء وفهم عدد غير منتهٍ من الجمل التي لم يسمعها قبلاً، وهو ما يفسر رفض "تشومسكي" لمبدأ التقليد في اكتساب اللغة.

ولا يفوتنا في آخر المطاف التذكير بما قاله "تشومسكي" حول المثيرات الملائمة والتي تقوم بتنشيط الميكانيزمات الفطرية، بحيث يرى أن المتعلم أو المكتسب لا يكتسب اللغة إلا إذا توفرت شروط ومثيرات ملائمة تقوم باستثارة استعداداته الفطرية. وتشومسكي في فكرته هذه يستند إلى نظرية "همبولد" الذي يرى أن عملية تعليم لغة ما تتمثل في محاولة توفير الشروط التي تتطور فيها هذه اللغة بصفة تلقائية دون تدخل منا.[1]

2. النظرية المعرفية المعرفية البنائية

1.2. مدخل

يعد "بياجي" أب "الإبستيمولوجيا الوراثية"، ذلك العلم الذي يدرس طرق اكتساب وتطور المعارف فحديثه عن اللّغة، أو الاكتساب اللغوي، ليس إلاّ مرحلة من مراحل بحثه الذي يستهدف التطوّر المعرفي لدى الطفل فهو لا يتصوّر إمكانية تطور لغوي بعيدًا عن التطوّر المعرفي عامة.وقد بين

1- D. Gaonac'h, Théories d'apprentissage et acquisition d'une langue étrangère, p103.

من خلال نظريته أنّ الاكتساب اللغوي نتاج مسار اكتساب قائم على آليات معرفية بنائية تفاعلية لا مكان للفطرية فيها.

وقد ارتكز اهتمام "بياجي" على النمو العقلي والمعرفي الذي يمر به الفرد من خلال التحول من مرحلة ما بعد الولادة الذي تصدر عنه الأفعال الحسية -الحركة البدائية حتى مرحلة المراهقة-، وقد أعطت نظريته بعض الإجابات عن الأسئلة التي يثيرها المهتمون بسيكولوجية التفكير حول منشأ السلوك المركب، ومن اللافت للنظر في هذه النظرية أن بياجي لم يركز اهتمامه على ربط العمر بأنماط معينة من السلوك فقد حدد المراحل الكبرى للنمو في ضوء أنماط العمليات العقلية التي توافق الأعمار المختلفة.

إن التطور العقلي المعرفي لدى بياجيه عبارة عن تغيرات في الأنماط تحدث من خلال عمليات التمثل والمواءمة والتكيف، ويرى أنه تطور في الحالة المعرفية، وهو كذلك اكتساب تدريجي للقدرة على التفكير المنطقي. وهو يفترض أن المعارف أبنية أو تراكيب عقلية وهي كليات منظمة داخليا، هذه الأبنية والتراكيب هي قواعد للتعامل مع المعلومات والأحداث، ويتم عن طريقها تنظيم الأحداث بصورة إيجابية. وما النمو المعرفي إلا تغير في الأنماط أو الأبنية المعرفية وهو يعتمد في حدوثه على الخبرات السابقة.

تعتبر الأنـماط جوهر نظرية "جان بياجي" وهـي عبارة عن بنيات افتراضية تتكون داخـل العقل أثناء تطور الإنسان من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرشد، ورغم من أن هذه الأبنية العقلية ذات أساس وراثي لكن البيئة المحيطة تساهم في تطورها وتبلورها، ووظيفة الأبنية العقلية الافتراضية هي تنظيم البيئة المحيطة بالفرد، وهي تقوم بدور مهم في عملية التكيف بالنسبة للفرد وتمثل نظاما عقليا بدقة يوجه السلوك و هي اساس الاكتساب اللغوي في النظرية المعرفية البنائية.

2.2. آلية الاكتساب اللغوي وفق النظرية البنائية المعرفية

يرى بياجي أن سلوك الطفل قائمٌ على توافقه مع المحيط، ووسيلته لتحقيق ذلك هي الأنماط، والنمط كما رأينا سابقاً بنية تنظيمية للأفعال وهو بالتحديد كل ما ينتهي بتعميم للفعل، وذلك من خلال تكراره في وضعيات متشابهة. ويعتبر النمط مفهومًا أساسيًا لديه. إنّ أنماط الرضيع محدودة وقليلة لا تعدو بعض ردود الأفعال الطبيعية كالبكاء أو الرضاعة التي تتطوّر لتصير أفعال حسّية حركية. ويمكن أن يربط نمو الطفل بتعدد هذه الأنماط أو بتعقيدها.

ويفسر بياجي عملية التوافق من خلال ما يسميه بالتمثل والذي يمكن أن نعرفه بكونه إمكانية إدراج شيء ما في نمط ما (هذا في المراحل لأولى)، والتكييف، إذ أن التوافق ناتجٌ عن ضمّ كل من آليتي التمثل والتكيف، فالطفل في محاولته للتوافق مع محيطه يلجأ دومًا إلى البحث عن تلاؤم بين ما يوجد في ذاكرته من الأنماط وما يوجد في محيطه فيسعى إلى فهم وتمثل الأحداث استنادًا إلى الموافقة بينها وبين الأنماط الموجودة في دماغه وهو ما يسميه بياجي بالتمثل[1].

ويتلخّص التكييف في كونه عملية تحويل الأنماط الموجودة مسبقا، بحيث يقتضي تحوير أو تعديل حدث أو موضوع سابق بغية التحكم في موضوع جديد، أو وضعية جديدة. وعليه يقوم التوافق على آليتين تعمل الأولى على تشكيل المعطيات الغوية التي يتيحها المحيط حتى تتلاءم والأنماط الموجودة في دماغ الطفل، أمَّا الثانية فتقوم بتعديلها وتحويرها حتى يتمكّن من الوصول إلى تحكم أفضل فيما يمكن أن نسميه موضوعًا جديدا أو وضعية جديدة، وبهذا يتم تخطي مشكلة عدم التوافق الناتجة عن

1- Piaget Jean, Shèmes d'action et apprentissage du langage, in Théorie du langage, théorie de l'apprentissage ,le seuil, paris ,1979, p 250.

تتطابق الأحداث الجديدة، والقديمة، أي تلك التي أدت إلى تكوين الأنماط السابقة. تجدر الإشارة ههنا إلى أن الفرق بين كل من التماثل والتكيّف هو كون الأولى عملية خارجية تنقل ما يوجد في العالم الخارجي، أمَّا الثانية فهي عملية داخلية، أو نشاط داخلي، فهي تكيف لما سبق تمثله.[1]

يرد بياجي عملية التوافق إلى مسارات التوازن التلقائي، حيث يقوم الفرد بتكوين البنية العامة لمعارفه اللغوية باستمرار أثناء عملية الاكتساب وذلك حفاظا على توازنه عبر آلية تنظيمية. يعد كل من مفهومي التفاعل والبناء أساسيًا في نظرية بياجي، أما الأول فيتلخص في طبيعة العلاقة بين الفرد ومحيطه، في حين يدور الثاني حول دور الفرد في محيطه والتكوّن التدريجي للبنى المعرفية الموافقة للغة لديه، يقول "برونكار" : «إن كل من مفهومي التفاعل والبناء أساسي في نظرية بياجي يرد الأول منهما إلى طبيعة العلاقة بين الفرد والمحيط ... أمّا الثاني فيوفر المنشطات اللازمة لعملية التفاعل... إن مفهوم البناء يمت بصلة مباشرة إلى دور الفعل في حركية الفرد، و كذا عملية تكوين البنى المعرفية.»[2].

يرى بياجي أن المعرفة تنشأ لدى الطفل عبر الأفعال التي يقوم بها في وسطه ويبرز الفعل منطق الطفل الناشئ، بحيث يصير هذا المنطق نقطة انطلاق لعمليات الذكاء المستقبلية[3]، ويعتبر الدماغ المصدر الأساسي للمعرفة، فهو يحوي من المعرفة أكثر مما قد يأتيه من الخارج، وعلى هذا لا يمكن أن نفسّر ما يتعلمه الطفل في أطوار نموه بالرجوع إلى المحيط، أو المجتمع فحسب.

1- J.P Bronchart, Théories du langage, une introduction critique, Pierre Mardaga , paris, 1977, p 64.

2- J.P. Bronckart, Théorie du langage, une introduction critique, p 70.

3- BarbelInhelder, Langage et connaissance dans le cadre constructiviste, in Théories du langage et théories de l'apprentissage le seuil, paris 1979 ,p 200)

إن ظهور اللغة لدى الطفل مرتبط وبصفة أساسية بما سماه بياجي بالتمثيل الذهني، وهذا مع بداية المرحلة الرمزية، ويعد التقليد -حسب بياجي- الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من الوصول إلى التمثيل الذهني، وهذاالأخير هو ما يسمح للاكتساب اللغوي بالتطوّر.

3. بين بياجي وتشومسكي

لطالما كثر الحديث عن الجدال الذي دار بين كل من بياجي وتشومسكي حول مسألة الاكتساب اللغوي، فقد اتفقا على كون اللغة نتاج للذكاء، وليست نتيجة للمسارات التي وضعها السلوكيون، لكنهما اختلافا في آلية الاكتساب اللغوي، إذ يرى بياجي أن مسار الذكاء وحده هو الوراثي، أمّا تشومسكي فيقر بأن اللغة ألية ذهنية ذات بنيةٍ فطريةٍ لا تختلف عن بنية العين، أو القلب، أو غيرها من الأعضاء البشرية[1].

كما ذهب بياجي إلى أنّ موقف النظرية الفطرية العقلية وكذا حججها لا تحلُّ المشكل بل ترده إلى علوم أخرى، كالبيولوجيا الجزيئية أو البيولوجيا العصبية وكذا علم الأعصاب الفيزولوجي، وقد فصل "جي سليرير" المسألة؛ فهو يرى أن أتباع بياجي يتبنون فكرة وجود بنية فطرية أولية في الجهاز العصبي المركزي، وكون تشومسكي وأتباعه يحيلون هذه الدراسة إلى الميدان البيولوجي لا ينفي لجوء أتباع بياجي إلى هذا العلم، لكنّ الفرق بينهما يكمن في أن تشومسكي يلجأ فورًا للاستعانة بالبيولوجيا، في حين يؤخّر أتباع بياجي هذا الأمر. وهو ما يعني أنّ كلّا من العالمين يحيل حلّ مشكل دراسة البنى الفطرية إلى علم آخر وغالبًا ما يكون البيولوجيا. وقد شرح أحد نقاط تلاقي النظريتين، والمتمثلة في كون الذكاء وراثي أو

1- Stephan Toulmin, Vers une voie entre constructivisme et innéisme, in Théories du langage et théories de l'apprentissage, p 403.

بالأحرى القاعدة التي يبني عليها الذكاء وراثية. فهو يرى أن مفهوم بياجي للشكل الأول للذكاء يتطوّر انطلاقًا من نواة متكوّنة من برامج لأفعال حسية-حركية-فطرية ومكيّفة مسبقًا[1]، وعليه فإنّ الطفل ينطلق من قاعدة فطرية وراثية، وهو ما يوافق منطلق المذهب الذي يتزعمه تشومسكي دون النظر إلى ما يلي فهما «يتفقان على وجود حالة أولية وهي محدّدة وراثيًاء وليست فارغة، كما أنها متبوعة بحالات وسيطة، ثم حالة نهاية ثابتة نسبيًا ... ويتفقان على أن جزءا من محتوى هذه المراحل ليس فطريًا بل مكتسب وهو ما يعنى أنه يؤخذ من المحيط الخارجي.»[2].

■ خلاصة

نستنتج أن النظريتين على اختلافهما تلتقيان في نقطة مهمة جدًا، بحيث نجد أنّ بياجي وأتباعه يقرّون بالناحية الفطرية في بناء المعرفة رغم ميلهم إلى القول بالاكتساب، وأن تشومسكي يذهب أيضًا إلى الإقرار بوجود الاكتساب في مسار تطور البنية الفطرية للفرد رغم نزعته الفطرية. كما يتفقان في كون الاكتساب اللغوي عملية عقلية وليس رد فعل سلوكي، إذ أن اللغة نتاج للذكاء وليست تعلما بالمفهوم السلوكي للمصطلح، لكنهما اختلفا في مسألة الفطرية والاكتساب إذ يرى "بياجيه" أنّ الاكتساب اللغوي تطور معرفيّ قائم على إمكانية التوافق مع المحيط وتمثل المعطيات وإمكانية تعميمها بعيدا عن الفطرية، في حين يذهب تشومسكي إلى كونه آلية فطرية أساساً خاضعة، لتمكن الطفل من اكتشاف نحو لغته التوليدي انطلاقا من استعداداته الفطرية.

1- Guy Cellérier, Stratégies cognitives dans la résolution de problèmes, in Théories du langage et Théories de l'apprentissage, le Seuil, paris 1979; p 115.

2- Jean Petit, De l'enseignement des langues secondes a l'apprentissage des langues maternelles, p 39.

▪ المصادر والمراجع ▪

- المراجع باللغة العربية :

- ميشال زكريا، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1983.

- المراجع باللغة الأجنبية :

- BarbelInhelder, Langage et connaissance dans le cadre constructiviste, in Théories du langage et théories de l'apprentissage le seuil, paris 1979.
- Daniel Gaonac' H, Théories d'apprentissage et acquisition d'une langue étrangère, Hatier-Crédif, Paris, 1987.
- Daniel Gaonac' H, Théorie d'apprentissage et acquisition d'une langue étrangère, Hatier Crédif, Paris, 1987.
- Guy Cellérier, Stratégies cognitives dans la résolution de problèmes, in Théories du langage et Théories de l'apprentissage, le Seuil, paris 1979.
- J.P. Bronckart, Théorie du langage, une introduction critique, Pierre Mardaga, 1977.
- Jean petit, De L'enseignement des langues secondes à l'apprentissage des langues maternelles, Champion – Slatkine, Paris – Genève, 1985,
- Noam Chomsky, Règles et représentations, trad Alain Kihn, Flammarion, France, 1985.
- Noam Chomsky, Théorie linguistique et apprentissage, La Recherche, N° : 331, mai 2000, France.

- Noam Chomsky, Théorie linguistique et apprentissage, La Recherche, N° : 331, mai 2000, France.
- Piaget Jean, Shèmes d'action et apprentissage du langage,in Théorie du langage, théorie de l'apprentissage, le seuil, paris, 1979, p 250.
- Stephan Toulmin, Vers une voie entre constructivisme et innéisme, in Théories du langage et théories de l'apprentissage,Edition le Seuil, Paris,1979.